الاحتضارات والقبريات

بقلم عيسى افندي اسكندر المعلوف مدرس آداب اللغة العربية والخطابة في الكلية الشرقية في زحلة (لبنان)

ويروى ان عدي بن ربيعة المهلهل لما اسنّ وخرف وكان لهُ عبدان يخدمانهِ فملاّ منهُ خرج بهما يريد سفرًا فاناخا بهِ في الفلوات وعزما على قتلهِ فلما عرف ذلك كتب بسكين على رحل ناقتهِ هذا البيت ويروى انهُ اوصاهما ان يقولاهُ لولديهِ وهو

من مبلغ الحيين انّ مهلهلا لله دركما ودرُّ ابيكما

ثم قتلاهُ ورجعا الى قومهِ فقالا مات . وانشداها قولهُ محتضرًا . ففكر بعض ولدهِ وقال ان مهلهلاً لا يقول هذا الشعر الذي لا معنى لهُ وانما اراد ان يقول

من مبلغ الحيين انّ مهلهلا أمسى قتيلاً في الفلاة مجندلا
لله دركما ودرُّ ابيكما لا يبرح العبدانِ حتى يقتلا

فضربوا العبدين فاقرّا بقتلهِ فقتلا بهِ في سنة ٥٠٠ م

وهذا اشبه بما يروى ان شاعرًا التقى بعدوهِ منفردًا فهم بقتلهِ . فقال لهُ : انا اعلم ان المنية قد حضرت ولكن سألتك الله اذا انت قتلتني فامضِ الى داري وقف بالباب ونادِ

ألا ايها البنتان ان اباكما .....

فاقسم لهُ بالوفاء . فقتلهُ وسار الى بابهِ وانشد . وكان للشاعر ابنتان فلما سمعتا قولهُ اجابتاهُ

..... قتيلُ خذا بالثار ممن اتاكما

ثم انهما تعلقتا بالرجل وحملتاهُ الى الحاكم فاستقرهُ فاقرّ بقتلهِ وقُتل بابيهما

ولما رمى وزرُ بن جابر النبهانيُّ عنترة العبسي المشهور بنبلة قطعت ظهرهُ تحامل بالرمية حتى اتى اهلهُ فقال وهو مجروح

وان ابن سلمى عندهُ فاعلموا دمي وهيهات لا يرجى ابن سلمى ولا دمي
إذا ما تمشّى بين اجبالِ طيّئٍ مكان الثريا [1] ليس بالمتهضم
رماني ولم يدهش بأزرقَ لهذمٍ [2] عشيّة حلّوا بين نعف ومحزمِ [3]

ثم مات على اثر ذلك الجرح سنة ٦١٥ م :

(١) اي ذو رفعة ليس بذليل (٢) الحادّ القاطع من الاسنة (٣) اسم محلين

وقال لبيد بن ربيعة العامري يخاطب ابنتيهِ محتضرًا (توفي سنة ٦٨٠ م)

تمنّى ابنتايَ ان يعيش ابوهما وهل انا الّا من ربيعة او مُضرْ
فقوما وقولا بالذي تعلمانهِ ولا تخمشا وجهًا ولا تحلقا شعَرْ
وقولا هو المرء الذي لا صديقهُ اضاع ولا خان الخليل ولا غدَرْ
الى الحول ثمّ اسمُ السلام عليكما ومن يبكِ حولاً كاملاً فقد اعتذرْ

ولما ماتت ليلى العامرية اتى المجنون (قيس بن الملوّح العامري) الى الحيّ وسأل عن قبرها فلم يهدوهُ اليهِ فاخذ يشمّ تراب كلّ قبرٍ يمرّ بهِ حتى تراب قبرها فعرفهُ وأنشد :

ارادوا ليخفوا قبرها عن محبها وطيبُ تراب القبر دلّ على القبرِ

ولم يزل يكرّر البيت حتى مات ودفن الى جنبها

ولما حضرت عبيدَ الله بن شدّاد الوفاة دعا ابنهُ محمدًا فأوصاهُ وقال لهُ : " يا بنيَّ أرى داعي الموت لا يُقلع . وبحق إن مضى لا يرجع . ومن بقي فإليهِ ينزع[1] . يا بنيَّ ليكن أولى الأمور بك تقوى الله في السرّ والعلانية . والشكر لله وصدق الحديث والنيَّة فان للشكر مزيدًا والتقوى خير زاد كما قال الحطيئة :

ولستُ ارى السعادة جمع مالٍ ولكنَّ التقيَّ هو السعيدُ
وتقوى الله خير الزاد ذخرًا وعند الله للأتقى مزيدُ
وما لابدَّ أن يأتي قريبٌ ولكنَّ الذي يمضي بعيدُ

وقال ابن قتيبة : بلغني ان اول من بكى على نفسهِ وذكر الموت في شعرهِ يزيد بن خرّاق فقال:

هل للفتى من بنات الدهر من واق ام هل لهُ من حِمام الموت من راق
قد رجّلوني[2] وما بالشعر من شعَثٍ[3] والبسوني ثيابًا غير اخلاقِ[4]
وطالبوني وقالوا ايّا رجلٍ وادرجوني كأني طيّ تخراقِ[5]
وارسلوا فتيةً من خيرهم حسبًا ليسندوا في ضريح القبر اطباقي[6]
وقسموا المال وارفضّت عوائدهم[7] وقال قائلهم مات ابن خرّاقِ
هان[8] عليك ولا تولع بإشفاقٍ فإنما مالُنا للوارث الباقي

---

(١) يميل (٢) من رجل الشعر اذا سرّحهُ (٣) تلبدهُ لثلة الطيب (٤) جمع خلق اي بالية (٥) منديل ويريد الكفن (٦) جمع طبق وهو عظم رقيق يفصل بين كل فقارتين ويريد به الجسم من باب تسمية الكل باسم الجزء (٧) اي تفرّقت النساء الزائرات لي في مرضي (٨) المشهور هوّن عليك والصدر مثل والاشفاق الخوف

وقال عروة بن حزام لما نزل به الموت :

من كان من أخواتي باكيًا ابدًا فاليوم اني أراني اليوم مقبوضا
ليسمعنّيه إني غير سامعه اذا علوتُ رقاب القوم معروضا

وقال كليب وائل لقاتله جسّاس بن مرّة لما طعنهُ وادركهُ الموت : "يا جسّاس أغثني بشربةٍ من ماء" — قال جسّاس تجاوزت شبيثًا والأحصّ[1] فذهبت مثلاً ثم اجهز عليه

واستقدمت امرأة من بني حنظلة أمام عمرو بن هند لما اقسم انهُ ليحرقنّ من بني حنظلة مائة رجل في يوم أوارة بناحية البحرين . فبعد ان ناقشها الكلام قال لها : اما والله لولا مخافة ان تلدي مثلك لصرفتك عن النار . قالت : اما والذي أسألهُ ان يضع وسادك . ويخفض عمادك ويسلبك ملكك ما قتلت الاّ نساء ذوات ميسم ودين[2] . قال : افذنوها في النار . فالتفتت فقالت : " ألا فتًى يكون مكان عجوز " — فلما ابطأوا عليها قالت " كأن الثيران حمّى " فأحرقت وذهب كلامها مثلاً

ولما حضرت زُرارة بن عدّس الحنظليّ الوفاة جمع بنيه واهل بيته ثم قال : " انهُ لم يبقَ لي عند احد من العرب وِتر[3] الاّ وقد ادركتهُ غير تحضيض الطائيّ ملقط الملك علينا . حتى صنع ما صنع . فأيكم يضمن لي طلب ذلك من طيّئ " — قال عمرو بن عمرو بن عدس بن زيد : " أنالك بذلك يا عمّ " فمات زُرارة مطمئنًا

وقال لقيط بن زُرارة لما طعنهُ شريح وارتثّ اي حمل مجروحًا وقربت ساعتهُ مخاطبًا ابنتهُ دخنوس

يا ليت شعري عنك دخنوسُ اذا اتاكِ الخبرُ المرسوسُ[4]
أتحلق القرونَ[5] ام تميسُ لا بل تميس انها عروسُ

وقال عبد يغوث بن صلاءة رئيس مذحج في يوم كُلاب الثاني لما شدّوا على لسانهِ نسعة اي قطعة من سير : — " انكم قاتليّ ولا بدّ فدعوني أذمّ اصحابي وأنوح على نفسي " — فقالوا : " انك شاعر ونخاف أن تهجونا " فعقدلهم ان لا يفعل فأطلقوا لسانهُ واسهلوهُ حتى قال قصيدتهُ هذه :

ألا لا تلوماني كفى اللوم ما بيا فما لكما في اللوم نفعٌ ولا ليا
ألم تعلما أنّ الملامة نفعُها قليلٌ وما لومي أخي من سماتيا

(١) اسم موردين (٢) اي حسن وجمال (٣) بمعنى الثار (٤) من رسّ الخبر القوم واخبارهم اذا تعرّفها (٥) اي الشعر

فيا راكبًا إما عرضت فبلغَنْ ... نداماي من نجران أن لا تلاقيا
أبا كرب والأيهمين كليهما ... وقيسًا بأعلى حضرموت اليمانيا
جزى الله قومي بالكُلاب ملامةً ... صريحهمُ والآخرين الموالي
ولو شئتُ نجّاني من القوم نهدةٌ (١) ... ترى خلفها الجردَ الجيادَ توالي
ولكنني أحمي ذمار (٢) ابيكمُ ... وكاد الرماحُ تخطفن المحاميا
أحقًّا عباد الله ان لست سامعًا ... نشيد الرعاء (٣) المعزبين (٤) المتاليا (٥)
اقولُ وقد شدُّوا لساني بنسعةٍ ... أمعشر تيمٍ اطلقوا لي لسانيا
وتضحك مني شيخةٌ عبشميةٌ (٦) ... كأن لم ترى قبلي اسيرًا يمانيا
أمعشرتيمٍ قد ملكتم فأسجحوا (٧) ... فإنّ اساري لم يكن من توانيا
فان تقتلوني تقتلوني سيدًا ... وان تطلقوني تحربوني (٨) بماليا
وقد علمت عرسي مليكة أنني ... انا الليثُ معدوًّا عليه وعاديا
قد كنتُ نجارَ الجزور ومعملَ المطيِّ وامضي حيث لا حيّ ماضيا
واعقر (٩) للشرب (١٠) الكرام مطيتي ... واصدع (١١) بين القينتين (١٢) ردائيا
وكنت اذا ما الخيل شمصها (١٣) القنا ... لبيقا (١٤) بتصريف القناة بنانيا
فياعاصِ فكّ القيد عني فانني ... صبورٌ على مرّ الحوادث ناكيا
وعادية (١٥) سومٍ (١٦) الجراد وزعتها (١٧) ... بربحي وقد أنحوا (١٨) علي العواليا (١٩)
كأنيَ لم اركب جوادًا ولم اقل ... لخيليَ كرّي قاتلي عن رجاليا
ولم اسبإ (٢٠) الزقّ الرويّ ولم اقل ... لايسار صدقٍ اعظموا ضوء ناريا

فما انتهى حتى ضربوا عنقهُ نحو سنة ٥٨٠ م

وقال عدي بن زيد العبادي وهو في حبس النعمان بن المنذر قبل ان اتى على نفسه في سنة ٥٨٧ م : (وتروى مقيدة الروي)

---

(١) فرسٌ حسنة (٢) ما يلزمك حفظه من عِرض ونحوه (٣) جمع راعٍ (٤) المصيبين الكلأ البعيد (٥) التالي من الابل التي لم تنج حتى صافت (٦) مخوتة من عبد شمس (٧) اسجح الوالي احسن العفو (٨) تصادروني (٩) انحر واذبح (١٠) جمع شارب كالصحب جمع صاحب (١١) أمزّق واشق (١٢) مثنى قينة وهي الجارية المغنية (١٣) طردها طردًا عنيفًا (١٤) هو ذو اللبق اي الحذق والرفق بالعمل (١٥) جماعة القوم يعدون للقتال (١٦) من سامت الطير على الشيء حامت او من سامت الابل والريح مرت (١٧) دفعتها (١٨) بمعنى وجهوا (١٩) صدور الرماح (٢٠) اشتر وابتع

ابلغ النعمان عني مألكاً (١) انهُ قد طال حبسي وانتظاري
لو بغير الماء حلقي شرقٌ كنت كالغصان بالماء اعتصاري (٢)
وعداتي ثُمَّتٌ اعجبهم انني غُيِّبْتُ عنهم في اساري
لامرىء لم يبل مني سقطة ان اصابتهُ ملمات العثار
فلئن دهرٌ تولى خيرهُ وجرت بالنحس لي منهُ الجواري
ربما منهُ قضينا حاجةً وحياة المرء كالشيء المعار

ولما رمي ربيعة بن مكدم في يوم الكديد لحق بالظعن يستدمي حتى انتهى الى امهِ ام سنان فقال: على يدي عصابة . وهو يرتجز ويقول

شدي عليَّ العَصْب (٣) ام سيَّار فقد رزبتِ فارساً كالدينار
يطعن بالرمح امام الادبار

فقالت امهُ انا بنو ثعلبة بن مالكِ مرور اخبارٍ انا كذلكِ
من بين مقتولٍ وبين هالكِ ولا يكون الرزء الاَّ ذلكِ

وشدت امهُ عليهِ عصابة فاستسقاها ماء فقالت: ان شربتَ الماء متَّ فكرَّ على القوم . فكرَّ راجعاً يشتدُّ على القوم وينزفهُ الدم حتى أُثخن (٤) فقال للظعن: "أوضعن ركابكنَّ حتى ينهين الى ادنى البيوت من الحي فاني لما بي سوف اقف دونكنَّ لهم على العقبة فاعتمد على رمحي فلا يقدمون عليكنَّ لمكاني" ففعلن ذلك فنجونَ الى مأمنهنَّ ثم مات . قال ابو عمرو بن العلاء: ولا نعلم قتيلاً ولا ميتاً حمى الاظعان غيرهُ

وكان توبة بن الصمة محاسباً لنفسهِ في اكثر آناء (٥) ليلهِ ونهارهِ فحسب يوماً ما مضى من عمرهِ فاذا هو ستون سنة فحسب ايامها فكانت احدى وعشرين الف يوم وخمسمائة يوم فقال ياويلتا التي مالكاً باحدى وعشرين الف ذنب" — ثم صعق (٦) صعقة كانت فيها نفسهُ

وقال عمرو بن زيد بن المتني يوصي ابنهُ وهو يجود بنفسهِ

أبنيَّ زوِّدني اذا فارقتني في القبر راحلةً برحل فاترِ (٧)
للبعث اركبها اذا قيل اظعنوا مستوسقين (٨) معاً لحشر الحاشرِ

---

(١) رسالةً (٢) من اعتصر بالماء ما غص بهِ من الطعام اي شربهُ قليلاً قليلاً ليسيغهُ (٣) البُرُد ويريد هنا ما يشد بهِ الجرح منهُ (٤) وهن وضعف (٥) جمع اني وهو عامة النهار (٦) غشي عليهِ وذهب عقلهُ من صوت بسمعهُ كالصاعقة ونحوها (٧) الفاتر من الرحال والسرج الجيد الوقوع على الظهر او النطيف ومنها الذي يفي الظهر ولا يعقرهُ (٨) مجتمعين

من لا يوافيهِ على عثراتهِ فالخلق بين مدفّع او عاثرِ

وقام ابو عبيدة بن الجراح خطيباً في طاعون عمواس فقال: "ايها الناس ان هذا الوجع رحمة ربكم ودعوة نبيكم وموت الصالحين قبلكم وان ابا عبيدة يسأل الله ان يقسم لهُ منهُ حظهُ" — فما أتم كلامهُ حتى اصابهُ الطاعون فمات لوقتهِ سنة ١٨ هـ ٦٣٩ م

وقال خالد بن الوليد عند موتهِ "لقيت كذا وكذا زحفاً وما في جسمي موضع شبر الاَّ وفيهِ ضربة او طعنة ثم ها انا ذا اموت حتف انفي[1] كما يموت البعير فلا نامت اعين الجبناء" توفي سنة ٢١ هـ ٦٤٣ م

وارتجز رُوَيد بن زيد محتضراً

اليوم يبنى لدويد بيتهُ لو كان للدهر بلا ابليتهُ
او كان قرني[2] واحداً اكفيتهُ يارب نهبٍ صالحٍ حويتهُ
ورب خيلٍ[3] حسنٍ لويتهُ ومعصمٍ[4] مخضّبٍ ثنيتهُ

واستدعى جريدة بن الاشيم الاسدي ابنهُ سعيداً فاوصاهُ وهو بلفظ انفاسهُ

ياسعد إما أهلكنّ فانني أوصيك ان اخا الوصاة الاقربُ
لا تتركنّ اباك يعثر راجلاً في الحشر يصرع لليدين وينكبُ
واحمل اباك على بعيرٍ صالحٍ وسقِ الخطيا[5] انهُ هو اقربُ
ولعلّ لي مما تركتُ مطيةً في القبر اركبها اذا قيل اركبوا

ونبغ جوشن بن قنفذ الكلابيّ في الشعر ومنعهُ عنهُ ابوهُ فجاش في صدرهِ ومرض حتى اشرف على الموت فاذن لهُ ابوهُ في انشادهِ: فقال "حال الجريض دون القريض" والجريض غصة الموت فذهب قولهُ مثلاً وقيل قالهُ عبيد بن الابرص للنعمان

وقال درّاج لما طعن

شدي عليّ العصب أم كهمس ولا تهُلك اذرع وارؤس
مقطعات ورقاب خنس[6] فانما نحن غداة الانحس
هيم[7] بهيم[8] طليت تمرّس[9]

(١) لغير علة (٢) نظيري وكفوي (٣) ساعد ريان ممتلئ (٤) موضع السوار من اليد (٥) مشي رويد اي على مهل (٦) منتبضة (٧) جمع هيماء وهي الناقة التي اصابها داء الهيام من العطش (٨) جمع هيماء وهي المفازة بلا ماء (٩) تمرس بمعنى تحتك من الجرب

ولما احس الخطيئة الهجاء بالموت اجتمع اليهِ قومهُ فقالوا : يا مليكة اوص فقال : ويل للشعر من رواية السوء . قالوا اوص رحمك الله يا حطيئُ قال : من الذي يقول

اذا أَنبض الرامون عنها ترنَّمت ترنم ثكلى اوجعتها الجنائزُ

قالوا الشمَّاخ . قال ابلغوا غطفان أَنهُ أَشعر العرب . قالوا ويحك أَهذه وصيةٌ اوصِ بما ينفعك . قال ابلغوا اهل ضاربٍ انهُ شاعر حيث يقول :

لكلِّ جديد لذَّةٌ غير انني رأَيت جديد الموت غير لذيذِ

قالوا اوصِ ويحك بما ينفعك . قال ابلغوا اهل أَمرىء القيس انهُ اشعر العرب حيث يقول :

فيا لك من ليلٍ كأَنَّ نجومهُ بكل مغار الفتل شُدَّت بيذبلِ

قالوا اتقِ الله ودع عنك هذا قال : ابلغوا الانصار ان صاحبهم اشعر العرب حيث يقول :

يغشون حتى ما تهرُّ كلابهم لا يسألون عن السواد المقبلِ

قالوا هذا لا يغني عنك شيئًا فقل غير ما انت فيهِ فقال :

الشعر صعبٌ وطويلٌ سلَّمهُ اذا أَرتقى فيهِ الذي لا يعلمهُ

زلَّت بهِ الى الحضيض قدمهُ يريد ان يعربهُ فيعجمهُ

قالوا هذا مثل الذي كنت فيهِ فقال :

قد كنت احيانًا شديد المعتمدْ وكنت ذا غربٍ على الخصم أَلدْ

فوردت نفسي وما كادت تَرِدْ

قالوا : يا ايا مليكة أَلك حاجة . قال : لا والله ولكن اجزع على المديح الجيد يمدح بهِ من ليس لهُ اهلاً

قالوا : فمن اشعر الناس . فأَومأَ بيدهِ الى فيهِ وقال هذا الجُحَيْرُ[1] اذا طمع في خير . يعني فمهُ واستعبر باكيًا فقالوا لهُ قل لا اله الاَّ الله فقال :

قالت وفيها حيدةٌ وذعرُ عوذي بربي منكم وحجرُ

فقيل لهُ ما تقول في عبيدك وإمائك . فقال : هم عبيد قنّ[2] ما عاقب الليل النهار . قالوا فاوصِ للفقراء بشيء قال أُوصيهم بالإلحاح في المسألة فانها تجارة لا تبور . قالوا فما تقول في مالك . قال للأُنثى من ولدي مثلا حظ الذكر . قالوا ليس هكذا قضى عزَّ وجلَّ قال : لكني هكذا قضيت . قالوا . فما توصي لليتامى قال : اكلوا اموالهم . قالوا فهل شيء تعهد

(١) تصغير جحر وهو الغار البعيد القعر (٢) اي ملكوا هم وآباؤهم يقع على المفرد والجمع والمؤنث

فيه غير هذا قال نعم . تحملوني على اتان وتتركوني راكبها حتى اموت فإن الكريم لا يموت على فراشه والأتان مركب لم يمت عليه كريم قط . فحملوه على أتان وجعلوا يذهبون به ويجيئون عليها حتى مات وهو يقول :

لا احدٌ ألأمُ من حطيئهْ هجا بنيه وهجا المرّيّهْ
من لؤمه مات على فُرَيّهْ (١)

وتوفي في خلافة عمر بن الخطّاب

ولما رُمي بشر بن ابي حازم بن عوف الأسديّ الشاعر بسهم في غزوة بني وائل ونفذ في صدره خرّ عن فرسه وانشد عند موته ٥٣٠ م :

اسائلة عميرة عن ابيها خلال الجيش تعترف الركابا
تؤمل ان اعود لها بنهب ولم تعلم بأن السهم صابا
فإنّ أباكِ قد لاقى غلاماً من الابناء يلتهبُ التهابا
وإن الوائليّ أصاب قلبي بسهم لم يكن نكساً (٢) محابي (٣)
فرجي الخير وانتظري إيابي اذا ما القارظ العنزيّ آبا (٤)
فمن يكُ سائلاً عن بيت بشرٍ فإنّ لهُ بجنب الردّ بابا
ثوى في ملحدٍ (٥) لا بدّ منهُ فأذري الدمع وانتحبي انتحابا
مضى قصد السبيل وكل حيّ إذا حانت منيّتُهُ اجابا

وروى ابو الحباب أنّ معاذ بن جبل لما أُحضر قال لخادمته ويحكِ هل أصبحنا . قالت لا . ثم تركها ساعةً ثم قال لها انظري فقالت نعم . قال أعوذ بالله من صباح الى النار . ثم قال مرحباً بالموت مرحباً بزائرٍ جاء على فاقة لا افلح من ندم . اللهمّ انك تعلم أني لم أحبّ البقاء في الدنيا لجري الأنهار وغرس الاشجار ولكن لمكابدة الليل الطويل وظمإ الهواجر (٦) في الحرّ الشديد ومزاحمة العلماء بالرُّكب في مجالس الذكر " وتوفي سنة ١٨ هـ ٦٣٩ م

ستأتي البقية

(١) أتان (٢) السهم المنكسر (٣) اعيى الراتي خطأً الغرض ولم يصب غيرهُ من حابي
(٤) مثل لعدم العودة (٥) قبر (٦) جمع هاجرة وهي الظهيرة